أحوالهن معهم

1- أحوالهن معهم:

هو ما رآها قط، ولا أُترعت عيناه بصورةٍ لها على هيئة البشر؛ يأرز إليها إذا ما ضامه الشوق، وأمدَّه التحنانُ بكؤوس التصبُّر والرضا، ولا اشتمَّ لها ريحاً تسبغ طرقَ فؤاده الممهدة لتسلك روحه مسالك رياح الصبا، ولا اكترى من لباناتِ مشيتها وصالاً يُعلي بها صرح آماله العراض، كلُّ ما استيقنته منه الروح أنه هام بها حدَّ التدلُّه ما أن أتته أخبارها، فكان يرسل سمعه يتحسس، ويستثير القومَ كيما من فتون حرفها يمدُّونه، فتتمثل له في خاطره كما شاء له الهوى، وإذ بما احترز من شطحات الخيال تنضوي تحت جناح التواضع لا تلوي، فما أن استبد به ما كان حتى أرسل في استيفاء ما قُدِّر، لتنبئه اللحاظ أنَّ ما كان من سالف هيامه ليس إلا خاطراً عابرا، وأنَّ قابل أيامه معها لهو طاقةٌ فتحت له على نعيم الآخرة!

2- أحوالهن معهم:

وهبي أنني تركتُ ورائي نوحَ اللوائح وهذرَ المحال، ويمَّمتُ شطرك في البلاد الغريبة أغزلُ من موج القطيعة عباءةَ وصلٍ تكلِّلُ هامةً من خيال، ولحقتُ وخلفي مواكب نورٍ بالبعث المؤمَّل و الجديد، ولستُ يا نضارةَ عمري يوماً عن ذا القرار أحيد = أكنتِ يا هدلَ الحمائم تسمحين! وعلى أبواب أقداري الحزينة تزدهين! أكنتُ عييَّاً و بيني وبينك عقباتٌ كؤود، ومعاولُ جَهدي من سقمٍ يجتاحها الصدى والجمود، وفي خافقي حريق روما يشظِّي اللهفاتِ ويرضاه القعود! أنا احتباسُ العمر أرداني وجلَّلني السخام، وزهرةُ النار تسحق معانيَّ التي أجَّجت فيَّ الضرام، أنا يا رديفة أحلامي ما عدتُ أملكه القرار، وأحمقُ العثرات يرسمه الطريق، وعلى حدود اليأس أرسى دعائمَه البوار. أيُّ الوصال يا كرمتي يلوح، وكلُّ من أهواه ودَّعني على هذي السفوح، فدعيني يا من هويت من قبل الوداع أروح!

3- أحوالهن معهم:

كان عليها أن تدقق النظر جيدا، ترتشفه بناظريها ارتشافاً كأنه ثمالةُ كأس الحياة ، تذهب المدى لتستحلَّ كلَّ التفاصيل التي صاغتها وأضحت عطرها الأوحد، التفاصيل التي أهدتها الجنةَ يوما. وهو ينقل خطاه الهوينا لتتصاعد ذرات الغبار إثر كل قبلة يطبعها بقدمه على خد الأرض، وتغبطها هي كأنها من فرط هيامها – ذرات الغبار- انتشت فاعتلت مع سكرةٍ ضجت بها، فما طاقت ركوناً إلى أمها الأرض، تلتوي حقداً عليها: كيف لي أن لا أكون مكانها هناك تحت قدميه!!، فتنفث غضبتها ناراً وتبلع ريقها بتصبُّر، وتبعد عينيها قسراً عن الذرات العابثات، لتواصل رحلة اختزانه.

تحوطها النسوة = يحاولن جهدهن التربيت على مظنة فقد، ما أسخفهن! تتفلَّتُ من حصارهن الأبله: دعوني وشأني فرحلتي لم تبدأ بعد. صعوداً إلى عينيه، مهمةٌ شاقةٌ محببة، عليَّ أن أتجلد، لا وقت لهراء التداعي وسخافات البكاء. بعينيها تحفر أخدوداً عميقا على وجهه الذي هو لها، لتبدأ عملية النقش بطيئة ومتأنية. يتابع هو خطوَ عينيها ويفهم، لترتسم على شفتيه ابتسامة متمهّلة، يمنحها إياها ببذخٍ كأنه يملك كل الوقت الذي في الدنيا، تأخذ ابتسامته وقتها ارتساماً في العينين لتبرق بها أسارير وجهه على مهل، كأنه على وقع عينيها يرتشفُ فنجان قهوته الأثيرة على كتف البحرة وهو يناجي الياسمين في أعطافها، يسعى جهده ليمنحها مجالاً للرصد أبهى وأكمل: انظريني! فلا تأبه هي بكل محاولاته لاستدرار ما ستقضي بقية عمرها تؤديه بكفاءةٍ تامة، تتجاهل كل نجوىً تصدح بها ملامحه، لتستمر في نقش مؤونة العمر على تعاريج ذاكرتها.

خطوات معدودات لترتفع قامته بكل تلقائية الكون- مخلوقٌ للشموخ- ينتصب مزهواً كما كل قامات النخيل في بلاده لتسمع جارتها العجوز تفحُّ بقرب أذنها : إيه، يا خسارة الشباب، ليتهم قسَّموا. تزوي ما بين حاجبيها بتأففٍ ساخط : ليتك تلقمين حجراً يا نعيب البوم!

تعود لمهمة النقش الأثيرة، الأفعى الآن حول جذع السنديانة تلتوي، فتتسارع الأنفاس وتكتم الشهقات بكثير عسر: اصمدي، لا وقت لكل هذا الهراء الذي تمتلكين له العمر، فاصمدي الآن، الآن فقط. تضع يدها على حجاب وجهها لترفعه وتستعد، فيرمقها بنظرة كاسحة تكاد غضبتها تهوي على وجهها فتصفعه، ليتهلل وجهها وتمنحه آخر ابتساماتها.

تتشبَّث الأفعى بجذع السنديانة – أرجوحتها الحبيبة– وتحكم حولها الخناق، وتسمع طرقعة يرتخي لها الجسد دفعة واحدة، كأنه يستعجل الرحيل إلى حيث أتى، عندها .. تتصاعد أنفاسها وترتج في صدرها كل الشهقات المختبئة، لترفع يداً نحو فيها مرتجة.. وتزغرد!

(لا بارك اللهُ في الدنيا إذا انقطعت أسبابُ دنياكَ من أسباب دنيانا...)

4- أحوالهن معهم:

بردٌ عميم، زخّمٌ يكاد يهتك كل أستار دفاعاتي، لم أشهد لموجة البرد هذه مثيلا وأنا ابن الجبل، الأمر يبدو كأن البلد تنفث غضبتها حمماً قارسة في وجوهنا كلنا، يا لله! كل قوقعتي على ذاتي لا تزيدني إلا مزيد ارتجافٍ يكاد يخلع أوصالي، وومضة النار في بقايا رمادي تبدو حلماً بعيد المنال. يقضمني الملال، وكل ما حولي ساكن لا يحمل شبهة التربُّص، كأنه التنهيدة الأخيرة في صدر الوجود. أتلفّت حولي علّي أنتزع من الرفاق جمرةً منسية تحرِّك سواكني، فلا أجد إلا أبخرة الخواء تنزُّ من شفاهٍ زرق!

حافلةٌ مخبولة يقودها مخبول تقترب، أسمع دحرجة العجلات وأرى فأكذِّب عيني: هيا اقترب!

أنتزع ما تبقى لي من قدمين ما تأمّلت لهما حراكا، وينتصب جبل الجليد فيّ، أمضي أبحث بعيني عن رفيقة دربي الناعسة بجواري وألتقطها، أطمئن على التقامها، ثم أمضي إلى غنيمتي!

البوط العسكري الثقيل يدفعني إلى الأمام دفعاً حيث الحاجز، أقف معترضاً مسار الحافلة، وبعيني أنادي الرفاق، لتبدأ مرحلة التململ والتي يعقبها: احصل على غنيمتك لوحدك، إنا قاعدون!

أمط شفاهي وأهز كتفاً تحمل الرفيقة التي لا تفارق، وأزيد في احتضانها :أنا وأنت ولا أحد سوانا!

أمدُّ كفاً تغرق في قفازها الصوفي، لأسمع صوت المكابح ، وتلتقط أذني المدربة صوتاً خفيّاً مُلازماً لها اسميه صوت الرعب: حاجزٌ وخاكيٌّ وحافلة!

أدفع الباب بيدٍ حازمة، وفي الأخرى أشهر الرفيقة، أقلِّبُ بعيني في الوجوه: كالحةٌ على شفا موت، أسمع زعيق الرعب على وجوههم، وحلوقٌ تجمد فيها ريقها!

أدفع بجسدي إلى الداخل، ألوِّحُ للسائق فيهرع إليّ من فوره، وبمزيد تلويح يمضي يجمع من ركابه بطاقات الهوية: يحفظُ الدرس!

وجوهٌ تنزفُ الرعب، وعيناي تجوسان خلالهم كلهم، تنثر مزيداً ومزيداً منه، لا تذر منهم أحداً ولا أراهم في آن، ليأتيني السائق بحصيلته، أمدُّ يداً عجولة، لأتفحصها واحدةً واحدة، أُرهف سمعي: قلوبٌ تُخلع من صدورها لتتواثب أمام عيني في ممر الحافلة!

البطاقة الأولى، تتدحرج عيني على خانة الديانة فالمذهب، أنادي الاسم وما من مجيب، أرفع عيني– المدربة – لتختار أشدهم زرقة موت على وجهٍ مطابق لما على البطاقة بين يدي، لأشير بعيني إلى السائق، ليقوم من فوره –كمن يتعجل الخلاص من مهمةٍ مقيتة– ليقود صاحبها – الهوية – خارج الحافلة!
أتابع تقليب البطاقات، ويتتالى الزرق نزولا، ثم أراها!

كيف لم ألحظها، يا لله! كيف لم أفعل!! ينصهر الجليد في أوردتي رويداً رويدا، وعيناي تغزوان صورتها، أنتبه: هي هنا، لأرفع عينين ملهوفتين تتصفّحان الوجوه: هي هنا!
يا إله السماوات! تلتصق عيناي بها: وجدتها، يرتجُّ صدري بأنفاسٍ محمومات ظنها قد هجرته بلا رجعة، ليذوب الجليد دفعة واحدة!
العينان الحارقتان تتحولان إلى حمامتين وادعتين ترفرفان على وجهها الملتاع: أوه، أرجوك لا تخافي!
ابتسامةٌ تقرر شقَّ طريقها نحتاً على وجه الصخر: أرجوك لا تخافي!
يدان تتشبثان برفيقةٍ كادت تصبح طرفاً زائدا، الآن هما ترتجفان، لأُزيح الرفيقة خلف ظهري، وأرفع أصابعي تداعبان خصلةً ضلت طريقها على وجهي: أرجوك، لا تخافي!
أقترب بخطىً اعتادت الهدر، فتجفل، لأتراجع خطواتٍ إلى الوراء: أرجوك، لا تخافي!
تنهيدةٌ تقذف الحمم ينفثها صدري لتروح عيناي تغادران إلى بطاقة هويتها: لن تخافني صورتها!
نصفُ ابتسامةٍ تداعب شفتيّ: يا لله! لتهوي – بعد طول تأجيل– حيث الخانة الفيصل!
تراجعٌ بطيء، ابتسامتي تغيم عن عيني أولا، ولازال نقشها على الشغتين لم يبرحهما: يا لله!

أبلع ريقاً تلظَّى في أحشائي، وأعيد النظرة إلى الخانة فإليها، الخانة فإليها: يا لله!
أتقدَّم منها وقد حزمت أمري، أغرس نظرتي في العينين الراجفتين، في وجهها الحبيب، أجول بعيني كأنما أتحسس نابضها، أتشبث في تلابيب ذاكرتي: ابذلي وسعك، تناجيها عيناي: أرجوك لا تخافي، أزدري ما تبقى لي من ريق، أُلصق الفوهة الباردة، أُغمض عيني.. و أُطلق النار!

#بيروت_1982

5- أحوالهن معهم:

لم أكن أعرفه أبدا، ولا عُرِّف لي يوما: غريرةٌ أوت إلى خدر صباها، ولكنني فقهت أسراره كلَّها دفعةً واحدة مذ قُدِّر لي! يومها كان حفل زفاف ابن حارتنا على صاحبةٍ لي أثيرة، كنت أعدُّها أختاً حتى جاء من يشغلها ويأخذ بمجامع لُبِّها فنُسِّيت وتناست، وعدَّته – من بعد فاتحة الكتاب– كل أهلها.

أذكر نقمتي عليه، وفضولي الذي أكل على موائدي وشرب لأعرف ذاك الذي حرمني الرفيقة، واستأثر بها دونًا عنّا من بعد أن استلب بكلمة الله ما لا يُرَدُّ ولا يُبدَّل.

يومها اعتليت مع صويحباتي السطح وجعلنا نراقب ضاحكاتٍ لاهيات مراسم العرس، وعريسنا المبجّل منتصبٌ على خيلٍ مطهَّمةٍ تدور به بخطىً راقصة، وعباءته من خلفه تداعبها أنسامُ ليلةٍ نيسانيةٍ مقمرة، والأريج تتناقله النسائم العابثات، ليسكن أردان كل من حضر، حتى لبنات الدور من فرحٍ يضجُّ بها تكاد من مكانها تنخلع، وأصوات الزغاريد كأنها إيقاعُ الحياة: تشقُّ المدى مصهللةً لتتزاحم كلُّ الوتريات تنصت!

نتدافع حيناً ونتخفَّى وراء ظهور بعضنا البعض حيناً مظنةَ عيونٍ قد تسترق، تشقشق الفرحة في عيوننا فنصفق لها، لا شَغلنا ولا شُغلنا، يُفرحنا القليل كأنما حيزت لنا الأرض، ولا نسأل عمَّ إن يبد لنا أرّقنا.

حتى إذا ما تنادى شباب بلدتي إلى حلقة الدبكة أخذت كل منا تنازع الأخرى على موضع القدم، لنتحلَّق تحلُّق طيور الدوح على غصنٍ لها وأعشاش، فإذا اكتمل تراصُّ الصف، وبدأت الأهازيج التي نحفظها عن ظهر قلب، وتبادل المخاتير الردات، وتعالت دقَّات أقدام الشباب على الأرض تهدر: واحنا شبابك فلسطين والنِّعم والنعمتين =حتى كانت قد بلغت بنا السكرة مبلغها، فدارت لها الرؤوس، وجعلنا نصفق ونتقافز متواريات خلفَ حجب القمر، وحده يعرف أسرارنا.. ويسترنا!

ولا أدري للحظتي هذه كيف حانت مني التفاتةٌ نزعتني من سكرتي لأراه من بين الشباب المنهمكين بتأدية الرقصة الأروع، وقد أرسل إليَّ برسول نظرته الأولى ما ثنّاها، كيف انتقاني أنا من بين صحبتي، كيف تعثرت خطواته الواثقات فاختل عقد اجتماع صحبته، بل

كيف تحولت خطواته المتعثرة إلى استعراضٍ مبهرٍ لشبوبيته أنَّت له الأرض من تحت أقدامه، كيف فعل! .. لست أدري، ولكنني أذكر كيف خلع كوفيَّته وجعل يلوِّح بها بكل ما أوتي من قوةٍ وعنفوان، يدور حول الصفوف ويشقّها بخطواته ويتهادى بها، يتعالى بقامته ليتصاغر أمامه الكرمل، وبأكتافه يكتمل الحلم!

هؤلاء الرجال! أطفالٌ هم، إذا ما غضبوا دقُّوا الأرض بكعوب العصيان، وإذا ما فرحوا دقُّوها وما وهنوا. يومها أدركت، باعثٌ خفيٌّ سامرني أنني أنا التي من أجلها ازدهت حلقة الرقص بدقات كعبيه، وهدر أقدامه، كل هذا الاستعراض الصاخب كان من أجلي، حتى الكوفية التي تقاذفتها يداه كانت علامة أنني المختارة!

وقد كان، وُهبتُ الحياة له، وإليه سكنت فنُسِّيت وتناسيت! شغفُ الحياة معه فقهته، وغدوت به أكمل، حتى الكدرات وطّدت لنا سلم الوصال؛ ارتقيناها معا يداً بيد!

أذكره على فراش الموت يتمتم: مريمتي، اقتربي يا مريمتي، دعيني أشمُّ فيك رائحة البلاد.

لأهمس له: أنتَ البلاد يا حاج!

6- أحوالهن معهم

ربما كان لزجاج نافذتي وستارتها القشيبة رواية قصتي هذه على الوجه الأكمل والأدق: تزيح عني مغبة قصورٍ أو مظنة مبالغة، كيف لا وهي التي شهدتها – قصتي- وليدةً وعلمت عني وحالي ما لم أكن أنا حينها أعلم!

ألم يصطبغ زجاجها بلون أصابعي التي أوت إلى ركنها كما حمامةٍ وادعةٍ إلى أمِّها الأيكة تأوي! أما حفظتْ عني عهودَ وصلٍ تمتمت فيها شفاهٌ آيسة! كم من مرةٍ رسمت بأنفاسي على صفحتها خرائط أحلامٍ وبنيت أعشاشاً أعددت فيها المتَّكأ وفرشت النمارق! كم من مرةٍ تواريت خلف ستائرها بكليَّتي، وتركتُ عينين مسبلتين هناك من خفرٍ تجوسان ستر الغيب.. وتدعوان!

كانت بداية قصتي التي نُسجت حول مغزلها قادم سني عمري كلِّه يوم أن أتانا أخي من الجبهة: معي ضيف، أعدي لنا قهوتك فضلا. يومها أسرعت باعداد فنجانيين وأضفت لمستي التي اعتدتها: طبق من عروق الياسمين. وشغلت ببعض أمري حتى أتاني أخي بالصينية عليها فنجانيها وأحدهما مملوءٌ إلى حافته.. كما كان!

يومها قطبت حاجبي وسألته بتبرم: لمَ لم تشربه!!، ليهزَّ كتفيه عائداً إلى ضيفه: أنا من شرب.

وكأنه صبّ على ناري زيتاً، وأنا التي اشتهرت بقهوتي في العائلة بأسرها، فباتوا يسمونها باسمي إذا ما عنّ لهم التلذذ برشفاتٍ تأخذ باللب، وحانت مني التفاتةٌ إلى صينية التقديم لأجد طبق عروق الياسمين خالي الوفاض منها، لأسرع بخطىً مغضبة إلى النافذة أرى هذا الذي ما استهوته قهوتي أنا!

يومها أزحت الستار وتواريت خلفه، ثم مددتُ بصري علِّي أرى هذا الوقح الذي جرؤ، فكان أن اصطدمت عيناي أول ما اصطدمتا بحذاءٍ عسكريٍّ ثقيل ويدين تلوحان تشرحان أمراً ما، وأخي أمامهما ذاهلٌ بكل جوارحه ينصت، أعدت دفة عيني إلى الوقح الذي جرؤ على رفض قهوتي، وهممت برفعهما إنشات قليلة .. فمُنعتا ولبثتا عند حدود اليدين لا تبرحهما!

ما الذي جرى! لست أدري، فقط جعلت أتأمل عروق الياسمين بين يديه، ينقلها من كفٍّ إلى الأخرى، ويداعب بتلاتها كأنها ماسٌ ثمين يخشى عليه الخدش! يومها – ولأول مرة– تمطَّى قطيَّ الناعس أبداً بجوار البحرة وتهادى بمشيته المختالة، أرقبه لأجده – لدهشتي العارمة– يلقي بكتلته الناعمة المدللة تحت قدميه، ليدفع الغريب بالياسمينات إلى جيبه، ويأخذه بكلتا يديه يداعبه ويلاعبه، وقطيَ الخائن يزوم متكاسلاً ويقرقر بكل هناءةٍ ورضاء اختصني بهما أنا، لوحدي أنا!

أما وقد اجتمعت على الغريب من غضبتي الأسباب، فقد وجدت متنفسي مع زياراته المتتالية بتعهد النافذة المطلة على (أرض الديار) بمزيد تلميعٍ وتنظيف، أخصُّ أركانها وأولي زجاجها اهتمامي، حتى غدت لامعةً صقيلة كأنها الهواء!

ومع كل مرةٍ يوصيني فيها أخي باعداد الشاي للضيف، مع فنجان قهوته هو، أدَّعي أنا الصمم لأعد الفنجانين أملأهما بالصهباء، أعدّها على نار التصبر وأمزجها بابتهالات الياسمين على الطبق المعهود، ليعاتبني أخي: لا يشرب القهوة، لأجيبه متوسلة: لربما يفعل هذه المرة، ليعود إليَّ كل مرةٍ وقد نقص فنجانه رشفةً أو رشفتين، وتهاجر عروق الياسمين إلى جيبه آمنةً مطمئنة، فكنت ألتقط فنجانه أتأمله دهرا، ثم أفرغه في جوفي على مهل، ثم أغسله برفقٍ وتأني، وبمكانٍ قصيٍّ عن الأعين أحفظه!

ولم أرفع عينيّ إليه قط، لم أفعلها أبدا، رغم أنّ بعض إنشاتٍ كانت كافيةً لإرواء ما أجد، ولكنني لم أفعل، وكأنني حُفظت، وكأنه حُفظ ! وجعلت أرسم له في مخيلتي شكلا، وجعلت أنتقي له من الأسماء اسما – وما كنت أعرف عنه غير كنيته– وشغلت بالوافد الغريب كأنني عرفته العمر كله، فلطالما لجأت إلى مخيلتي أنسج حواراً بيننا يطول فلا أملُّ أبدا، وأستسقي من نبع خيالاتي المزيد، ثم أضفي على صوته اللكنةَ والنبرة، فيعلو ويهدر، ثم يخفت ويتهدّج، وأنا على كل الأحوال إلى معين صوته أرِد!

حتى قطيَ الجسور غبطته، أو – ولأكن صادقة– وددت لو قتلته لضيق صدري واعتلال مزاجي، فكيف يتفرد هو – وهو الأعجم– بما لم أخبر، حتى إذا ما هامني احتضنته، وجعلت أنادي فيه من سبقني إليه، وجعلت – لذلك – إلى ربي دعاءً يتهدج به لساني في كل حين، يتحرّى للاستجابة أوقاتها، ومن الليل أتهجد!

والزيارات مازالت، وعيناي ما رُفعتا ولا إنشا، والكفان مازالتا تلوحان، وأخي مازال بكليَّته ينصت، ويزيد أن يصرَّ على أمي أن تذكره– الغريب – في دعائها بالاسم، ذاكراً مناقبه، مثنياً عليه: فهو في نظره الصاحبُ الرشيد، والخلُّ الفريد!

حتى جاءني يوماً والفنجانان كلاهما فارغان، حتى ثمالتهما فارغان، وعلى طبق الياسمين ترفل الياسمينات كلها، لتبسم عيناه وتتهلل بالبشر – كلُّ البشر– أساريره : أختي، حبيبتي، يطلبك للزواج فلان – يعني الغريب– الذي أمسى جنة أرضي وفراديس السماء!